

المحاضرة السابعة عشرة

الفلسفة الإسلامية: علم الكلام: التيارات الكلامية:

رابعاً: التيار الصوفي (٢)

اما في مدرسة أهل البيت (ع) التي تستمد أصولها من النبي الأكرم (ص) والأئمة (ع) باعتبارهم مثلاً للزهد والرقي العلمي والروحي ، ويسمى من يسلك هذا الطريق بالعارف ، وقد عد العارفين أمير المؤمنين أستاذهم الأول ، فمن خلال ما ورد في كلامه (ع) من إشارات إلى أحوال التصوف، إذ بين (عليه السلام) من مقامات العارفين التي يرمز إليها في كلامه ما لا يعقله إلا العالمون ولا يدركه إلا الروحانيون ، وان أرباب هذا الفن في جميع بلاد الإسلام إليه ينتهون وعنه يقفون، وقد صرخ بذلك الشبلي والجندى وسرى وأبو يزيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم، ويكتفى دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم إلى اليوم وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام . و قال ابن أبي الحميد في شرحه لكتاب الإمام علي (عليه السلام) في شعب الإيمان والكفر : (هذا الفصل أخذت منه الصوفية وأصحاب الطريقة والحقيقة كثيراً من فنونهم في علومهم، ومن تأمل كلام سهل بن عبد الله التستري وكلام الجنيد والسرى وغيرهم رأى هذه الكلمات في فرش كلامهم تلوح كالكتواب الظاهرة).

ومن خلال قوله (عليه السلام): (إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعنده الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه، واعد القرى ليومه النازل به، فقرب على نفسه البعيد، وهو نون الشدید). قال ابن أبي الحديد: من هذا الكلام اخذ أصحاب علم الطريقة والحقيقة علمهم، وهو تصريح بحال العارف، ومكانته من الله تعالى، والعرفان درجة حال رفيعة شريفة جداً مناسبة للنبوة ويختص الله تعالى بها من يقربه إليه من خلقه. والعارف هو الواسط إلى الله سبحانه بنفسه لا ببدنه، والباري سبحانه متمثل في نفسه تمثل المعشوق في ذات العاشق، ويستلزم أن يكون العارف زاهداً حيث لا يمكن تصور العرفان مع تعلق النفس بملاذ الدنيا. وقد يحصل بعض العرفان لبعض العلماء والفضلاء مع تعلقهم بشهوات الدنيا، لكنهم لا يكونون كاملين في أحوالهم، لأن الحالة الكاملة قد تحصل لمن رفض الدنيا، والتي تستلزم أن يكون العارف عابداً عبادة ما، ولكن لا يتشرط في حصول العرفان أن يكون على قدم عظيمة من العبادة، بل الإكثار من العبادة حجاب لكن لابد من القيام بالفرائض وقليل من التوافل. والعارف هو العارف بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسله وكتبه وبالحكمة المودعة في نظام العالم لاسيما الأفلاك والكواكب وتركيب طبقات العناصر والأحكام وفي تركيب الأبدان الإنسانية. وأكد ابن أبي الحديد إن هذه الصفات والشروط التي ذكرها في شرح حال العارف إنما يعني بها نفسه (عليه السلام) فهذا من الكلام الذي له ظاهر وباطن، فظاهره أن يشرح حال العارف المطلق، وباطنه أن يشرح حال عارف معين، وهو نفسه (عليه السلام). ثم ذكر ابن أبي الحديد هذه الصفات وهي ستة عشر آخرها العدالة وهي ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال الفاضلة خلقاً لا تخلفاً، وهذه العدالة لها أقسام ثلاثة هي أصول وما عادها فروع. الأولى: الشجاعة ويدخل فيها السخاء لأنه شجاعة وتهوين المال، كما إن الشجاعة الأصلية تهويين للنفس، فالشجاع بالحرب جoward بنفسه، والجoward بالمال شجاع في إنفاقه. والثانية: الفقه ويدخل فيها القناعة والزهد والعزلة، والثالثة: الحكمة وهي، أشر فيها.

يرى ابن أبي الحديد أن العدالة الكاملة لم تحصل لأحد من البشر بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) إلا للإمام علي (عليه السلام) (ومن أنصف علم صحة ذلك فان شجاعته وجوده، وعفته وقناعته وزهره، يضرب بها الأمثل). وأما الحكم والبحث في الأمور الإلهية، فلم يكن من فن أحد من العرب، ولا نقل في جهاد أكابرهم واصغرهم شيء من ذلك أصلاً، وهذا فن

كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به، وأول من خاض فيه من العرب على (عليه السلام) ولهذا تجد المباحث الدقيقة في التوحيد والعدل مبئوثة عنه في فرش كلامه وخطبه ولا تجد في كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك).

وأكَد ابن أبي الحديد من خلال شرحه خطبة للإمام أشار فيها إلى أولياء الله بـان الإمام هو مصدر التصوف إذ يقول (اعلم إن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل، ولعمري لقد بلغ منه أقصى الغايات وابعد النهايات والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى، وانتجتهم لنفسه واحتضنوا بأنفسه، أحبوه فأحبوه وقربوا منه وتقربوا منهم). ولقد أشار الإمام علي (عليه السلام) إلى مقامين من مقامات الصوفية وهما الولاية والمحبة بقوله: (يتواصلون بالولاية ويتألقون بالمحبة). وأشار ابن أبي الحديد إن مسألة (البروق اللامعة) التي يقول بها الحكماء والمتصوفة أخذوها عن الإمام علي (عليه السلام) ففي قوله: (قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دق جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلام، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن وراحة بما استعمل قلبه، وارضي ربه). فقوله (عليه السلام): (وبرق له لامع كثير البرق) هو حقيقة مذهب الحكماء وحقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة والحقيقة، وقد صرَح به الرئيس أبو علي بن سينا فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان: (انه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما عندها له خلوات من اطلاع نور الحق إليه لذلة لأنها بروق توهم إليه ثم تخمد عنه، وهي التي تسمى عندهم أوقاتاً، وكل وقت يكتفي، وجد إليه، ووجد عليه... ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغاً ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوط مألهفاً، والوميض شهاباً بيناً، ويحصل له معارف مستقرة، لأنها صحبة مستمرة، ويستمتع فيها ببهجهة، فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفًا). قال ابن أبي الحديد: (فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في الإشارات، وهي كما تراها مصراً في بذكر البروق اللامعة للعارف). وقال القشيري في الرسالة القشيرية لما ذكر الحال والأمور الواردة على العارفين قال: هي بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفي، ما أحلها لو بقيت مع أصحابها! فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حسبما ذكره الحكيم وكلاهما يتبع ألفاظ أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنه حكيم الحكماء، وعارف العارفين، ومعلم الصوفية، ولو لا أخلاقه وكلامه وتعلمه للناس هذا الفن تارة بقوله، وتارة بفعله، لما اهتدى أحد من هذه الطائفة ولا علم كيف يورد ولا كيف يصدر).

وقال ابن أبي الحديد في شرحه لأحد خطبه (عليه السلام) بـان ظاهر كلامه (عليه السلام) شرح حال القصاص، وأرباب الموات في المجامع والطرقات، والمتصدرين لإنكار القبائح، أما باطنـه فهو شرح حال العارفين الذين هم صفة الله تعالى من خلقـه، وهو (عليه السلام) دائمـاً يكـنـي عنـهـمـ ويرـمزـ إـلـيـهـمـ، عـلـىـ أـنـهـ فـيـ هـذـاـ المـوـقـعـ قدـ صـرـحـ بـهـمـ فـيـ قـوـلـهـ (حتـىـ كـانـهـ يـرـوـنـ مـاـ لـاـ يـسـمـعـونـ). وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل مقام الذكر، ومحاسبة النفس، والبكاء والنحيب، والنندم والتوبة والدعاء والفاقة، والذلة، والحزن وهو الأسى الذي ذكر انه جرح قلوبهم بطولـهـ.